(١٨)

(القراءة وبناء الإنسان)

إن موضوع «**القراءة وبناء الإنسان**» موضوع خطير ومهم ، وتناوله يتطلب ضمن ما يتطلب البحث عن العوامل الأساسية المكونة للإنسان ، وعن العوامل المهمة بصورة أو بأخرى في إعداده للحياة متغير متسع الحدود ، تتغير معالمه باستمرار ، ومعروف لدينا جميعًا أن بناء المواطن هو أخطر تحدٍ يواجه المجتمعات الإنسانية ، وبمقدار ما يبذل في إعداد المواطن من جهد تكون النتيجة ، المتمثلة في مجتمع متحضر قوي له دوره المؤثر فيما حوله ومن حوله .

وهناك عوامل كثيرة وحلقات متعددة تؤثر في بناء المواطن وتكوينه ، لعل في مقدمتها الأسرة ، وتكوينها وثقافتها ، واتجاهاتها الأخلاقية ، ومؤسسات التعليم ، وما تذخر به من مؤشرات متمثلة في الإدارات والمعلمين والمناهج والمعامل والمكتبات ، علاوة على المؤسسات المجتمعية المتمثلة في وسائل الإعلام والصحف والمجلات التي أنشأها المجتمع لتسهيل حركته وتطويرها خارج إطار الأسرة والمدرسة .

وتحتل القراءة مكانة عالية في جميع هذه العوامل والحلقات التي يمر بها المواطن ، فهي تدخل تقريباً في كل عمل يقوم به المواطن في مجتمعه ؛ فالمواطن في المجتمع المعاصر إما قارئ ، أو كاتب يقرأ ما كتب ، وهو في كل الأحوال تتأثر كتابته بالمستوى الذي يقرأ به ، والكتابة هي المرآة التي تظهر عليها قدرة الفرد اللغوية ، وبصفة خاصة قدرته في القراءة .

وإذا قارنّا بين القراءة وغيرها من وسائل بناء المعرفة ، وبناء شخصية الإنسان فإننا نجد أن القراءة تحتل مكانة بارزة بين الوسائل المهمة في المعرفة ،

فهي ـ أي القراءة ـ أداة تغزو بصاحبها جميع ميادين المعرفة دون مشقة أو جهد ، وهي تنتقل بك بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وهي التي بين يديك في القطار أو الطائرة ، ماشيًا أ و قاعدًا أو راكبًا ، وهي مصباح «علاء الدين» الذي يجمع العالم بين يديك ، طالما عرفت كلمة السر لهذا المصباح ، وهي الكلمة الإلهية التي أُنزِلت من فوق سبع سماوات «اقرأ» «اقرأ» مستعيناً بالله وبقدرته ، ومتوجهًا إلى الخير المحض لوجهه سبحانه ، اعترافاً بفضله سبحانه ، فهو الذي هدى وعلم الإنسان ما لم يعلم ، وفي كتاب شهير «لروبنسون» "Robinson" عنوانه «خمس وسبعون سنة من الدراسات العلمية في القراءة» نشر عام ١٩٦٦م ذكر «روبنسون» أن موضوع القراءة احتل مركزاً مهمًا في مجال الدراسات التربوية منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وما تزال القراءة تمثل هذا المركز ، وذلك التأثير القوي من جميع المهتمين بالتعليم على تعليم القراءة ، وللمبالغ الطائلة التي تنفق على البحوث الخاصة بها ، وعلى مواد القراءة ، وللمبالغ الطائلة التي تنفق على البحوث الخاصة بها ، وعلى مواد القراءة وأدواتها وإعداد قياداتها ؛ ولأهمية القراءة ليس فقط على المستوى الفردي بل على المستوى القومي بدأت الدراسات العلمية مبكرة .

وفي فرنسا وألمانيا قبل أن تبدأ الولايات المتحدة بزمن قليل ، بدأت الدراسات ، لقد بدأت في فرنسا وألمانيا في منتصف القرن التاسع عشر ، وحركت هذه الدراسات الأوروبية الأوساط التربوية في الولايات المتحدة ، ووجدنا حوالي ٣٤ دراسة علمية سجلت في عام ١٩١٠م في الولايات المتحدة، وتركزت هذه الدراسات حول الصعوبة في تعلم القراءة ، وقد اشترك الأطباء مع المختصين في القراءة في دراسة صعوبات القراءة لدى المتأخرين قرائياً ، وظهرت الدراسات العلمية حول ما يسمى "Dyslexia" عمى الذاكرة أو التأخر المعرفي "Congenital Lexia" . وأول كتاب ظهر ويعالج مسألة القراءة كان عام ١٩٠٨م «لإدمونز هوي Edmuns Huey» وعنوان الكتاب

«علم نفس القراءة وعلم تعليمها» Psychology and pedagogy of reading

ثم تلا ذلك مجموعة من التطورات في مجال البحث في القراءة ، ومن أهمها :

١- تعليم القراءة للأطفال ، ومحاولة تسهل الأبجدية ، وظهر ذلك جليًّا في مشروع "I .T .A" في انجلترا ، ومن ثمَّ في الولايات المتحدة .

٢- الطريقة الصوتية في تعليم القراءة أو الطريقة التركيبية .

٣- الطريقة الكلية في تعليم القراءة أو الطريقة التحليلية .

وظلت هاتان الطريقتان تتنازعان مجال تعليم القراءة في العالم كله ، وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يرجع الطريقة التحليلية إلى الألمان على يد «كوينيوس» يرجع «جيمس فلود James Flood» هذه الطريقة التحليلية في تعليم اللغة والقراءة ـ بصفة خاصة ـ إلى المصريين ؛ حيث ذكر «ابن خلدون» أن المدرس المصري كان يدرب صبيانه على كتابة الكلمة برمتها دون الفصل بين حروفها ، وكان يمنع هؤلاء الصبية من أن يكتبوا حرفاً حرفاً .

علاوة على ما سبق ذكر «روبنسون» أن الفترة من ١٩١٠م إلى ١٩٢٥م تعتبر أهم الفترات في تقدم بحوث تعليم القراءة ، حيث ظهرت جامعة «شيكاجو» كواحدة في مجال البحث في القراءة ، وفي مجال التخصص في تعليمها ، وقد بدأ «ثورنديك» هذه المرحلة أو هذه الحقبة بوضع أول مقياس علمي للمخرجات التربوية ، ثم تلا هذا المقياس مجموعة أخرى من مقاييس واختبارات تعليم القراءة للبروفسور «جراي Gray» ، وقد أعد «جراي» اختبارات في القراءة الجهرية ، وفي فهم الفقرات ، وفي القراءة الصامتة . . علاوة على أن هناك دراسات معملية أجريت في نفس هذه الفترة على يد كل من «شارلز جد» "Charles Judd" و«جاي بزويل» "Guy Buswell" ، وكانت أول دراسة أجريت على شكل دكتوراة في القراءة قدمها «وليم جراي» لجامعة «شيكاجو» عام ١٩١٧م ، وعنوان الدراسة «دراسات في القراءة في المدرسة الابتدائية باستخدام الاختبارات».

"Studies of Elementary School Reading Through Standardized Testes"

وأيضاً ظهر في هذه الفترة الاهتمام بالجانب العلاجي في القراءة "Remedial Reading" ، كذلك ظهر الاهتمام بالميول في القراءة ، لقد اهتم علماء النفس في هذه الفترة بصعوبات القراءة في المدارس العامة لمساعدة الأطفال الذين لديهم صعوبات كي يتعلموا القراءة . وهناك عالمان بارزان في هذا المضمار هما : «وليم جراي ، وآرثر جيتس» لقد كتب كلاهما المقالات ، والبحوث حول موضوع صعوبات القراءة في بداية العشرينيات .

علاوة على ذلك ظهرت في هذه الفترة ما يطلق عليه «خريطة الخبرة» أو «خرائط الخبرة» وهدفها تسجيل مدى تقدم الطالب منفردًا ، وقد كان هذا إيذانًا ببدء الاهتمام «بالتعلم الذاتي» و«بالفروق الفردية» بين المتعلمين .

بالإضافة إلى ذلك بدأ الاهتمام بالقراءة الصامتة ، وأخذت تحتل مكانة مرموقة على عكس القراءة الجهرية التي تواري الاهتمام بها ، وبصفة خاصة في المراحل العليا من التعليم ، ولقد كان الفتح الأكبر في مجال تعليم القراءة هو استخدام المنهج العلمي والتجربة في معالجة مسائل القراءة ، وكانت الثلاثينيات من القرن الماضي فرصة للتطبيق وللتوسع في التجريب ، علاوة على ظهور المئات من البحوث العلمية ، والعشرات من رسائل الدكتوراه (٦٥٤ بحثاً) (٣٥ رسالة دكتوراة) ، وفي هذه الفترة تطور تشخيص الضعف في القراءة ، كذلك فإن معالجة الضعف تطلبت البحث عن الأسباب التي وراءه ، وعن دور المتخصصين في القراءة والأطباء ، والوالدين . . إلخ ، وظهر في هذه الفترة مصطلح كان له من الأهمية ما جعله أساس تعليم القراءة ، هذا المصطلح هو الاستعداد لتعلم القراءة "Reading Readiness" ؛ ويعني هذا أنه لابد من إعداد الأطفال لتعلم القراءة بالأنشطة المختلفة اللغوية والحركية والسمعية والبصرية ، حيث إن عملية القراءة تتطلب مهارات مختلفة ، وتتطلب تضافر جميع الحواس لتجد قارئاً متميزًا .

وفي هذه الفترة اتسع مجال تعليم القراءة ؛ فاتسعت الأهداف ، وتنوعت المواد التعليمية بين حقيقية وخيالية ، وازدادت بحوث القراءة ، وظهرت برامج جديدة لتعليم القراءة الجهرية والصامتة ، وفي هذه الفترة ظهر اتجاهان مترابطان ـ في المعنى ـ وهما : الاتجاه نحو استخدام كتاب مفرد في القراءة ، واتجاه آخر يرى أنه لابد أن يكون لكل طفل أهدافه الخاصة وأن يتقدم بالسرعة التي تتناسب مع قدراته ، وقد كان هذا إيذانًا ببدء الاتجاه نحو « تفريد التعليم» الذي ظهر في بداية الخمسينيات على يد « سكينر » وزملائه وتلاميذه .

ويسمى الاتجاه الثاني ببرامج النشاط ، خاصة أن طريقة « دالتون» كانت قد ظهرت في ذلك الوقت عن مسز «باركهرت» ، وقد أدى الاتجاه إلى برنامج النشاط إلى الاهتمام بالمكتبات ، وبالكتب وبالميول علاوة على الاهتمام بالقراءة في مجالات العلم المختلفة ، وظهرت الحاجة إلى موجهين خاصين في مجال القراءة علاوة على الموجهين العامين للمواد الدراسية المختلفة .

وفي الأعوام من ١٩٣٥م إلى ١٩٥٠م تقلصت البحوث العلمية في مجال القراءة ، كما تقلصت سلاسل كتب القراءة ، علاوة على أن محتوى سلاسل كتب القراءة لم يتغير بالصورة التي يمكن ملاحظتها ، لكن مع هذا ظهرت بعض التغيرات في النظر إلى القراءة في المجتمعات الحديثة التي تتطلب أن يكون المواطن قادرًا على أن يعيش بفاعلية في مجتمعه ، وأن يكون له دور ، وأن يكون قادرًا على القراءة بوعي وفكر ، دون الخضوع للكلمة المكتوبة أو عبادتها .

وظهر في هذه الفترة ما يسمى باستشاري القراءة ، ونظرية الأسباب المتداخلة للصعوبة في القراءة والاختبارات غير المقننة ، والوسائل التعليمية ، علاوة على استغلال الصلة بين القراءة وفنون اللغة الأخرى ، وأخيرًا ظهر الاهتمام بتنمية المفردات من خلال تحليل السياق ، والتحليل التركيبي ، وتوسيع مفهوم الفهم في القراءة ، وقد أدخلت كثير من المدارس وظيفة استشاري القراءة بجانب الموجه العام .

٢٠١

إن القراءة من عام ١٩٥٠م إلى منتصف السبعينيات ، فقد شهدت هذه الفترة مجموعة من التغيرات السريعة التي لم يسبق لها مثيل ، وفق التراكم المعرفي والثورة التكنولوجية ، وقد خلق هذه تحديات ، علاوة على التحديات التي ظهرت من بعض الدول المعادية للنظام الديمقراطي ، علاوة على الطموحات المحلية النابعة من رغبة الحكومات المحلية في تطوير حياة المواطنين ، وقد وجد أن الحل الأمثل لمواجهة هذه التحديات هو التربية ؛ ولأن التربية لا يمكن أن تتم "Proceed" أو تتقدم دون القراءة ، ولذا كان لابد من زيادة العناية بالتنور "Literacy" وهو القراءة ، والمدهش أن خبراء التربية في ذلك الوقت سووا بين مصطلحين هما : القراءة والتنور "Literacy & Reading" ؛ ذلك لأنهم وجدوا أنه لا سبيل إلى المعرفة إلا بالقراءة ، وأن السبيل الرئيسي للمعرفة هو القراءة ، وقد وجهت الحكومة الفيدرالية جزءًا كبيراً من الميزانية للبحث في القراءة ، ولشراء مواد قرائية متنوعة ، ولتجهيز مراكز قراءة علاجية ، وإنشاء معاهد لهؤلاء الذين يرغبون في تحسين تعليمهم القراءة ، وإعطاء منح تفرغ لهؤلاء الذين يودون أن يتخصصوا في القراءة ، ومرت القراءة في أزهى عصورها ، ولم توجد فرصة يدعو فيها الناس إلى القراءة مثل هذه الفترة ؛ بحيث أصبحت القراءة الشاغل الأكبر للدولة ؛ وأصبحت تُمدُّ خدمة تعليم القراءة لجميع الأفراد ، صغاراً وكباراً ، داخل المدرسة وخارجها ، لقد اتسع الغرض من القراءة ، وأصبحت بحق الوسيلة الأساسية لتحقيق الأهداف القومية ، وقد شهدت هذه الفترة إطلاق الروس القمر الصناعي "Sputnik" ، وأرجع الخبراء سبق الروس في هذا المجال ، مجال الفضاء إلى فشل معلم القراءة الأمريكي في مهمته ، وهي تعليم الأطفال كيف يقرءون بفهم ، وكيف يقرءون بنقد ، وكيف يفيدون مما يقرءون .

وفي هذه المرحلة تنوعت كتب القراءة ، ووجدت سلاسل كتب لمن لا يحسنون القراءة ، ووجدت مواد تعليمية تعكس الطرق الحديثة في تعليم

القراءة ، كما تعكس الاتجاهات الحديثة في بناء هذا الفن . علاوة على ذلك زاد الاهتمام بالصعوبات الخاصة بالقراءة ، ومن هنا وضعت بعض الولايات متطلبات خاصة قبل وبعد الإعداد للمتخصصين في القراءة ، ومنذ ذلك الحين ، فإن البحث في القراءة فاق كل التوقعات ، سواء من حيث الكم أو من حيث الكيف ، بل يصعب أحيانًا حصره وتتبعه .

كل هذا حدث في الماضي ، ومن السهل أن نتحدث عن الماضي ، باعتبار أن هناك وثائق يمكن الاعتماد عليها ، أما الحديث عن المستقبل فهو غامض ؛ لقلة ما يمكن الاعتماد عليه في تصور خاص به :

١- فستلعب المواد السمعية البصرية دورًا مهمًّا في تعليم القراءة في المستقبل ، وبصفة خاصة تقنيات التليفزيون ، والأفلام ، والتسجيلات ، والكمبيوتر ، وغيرها من الوسائل .

٢- استخدام المواد التعليمية المبرمجة في الكمبيوتر (الاعتماد على الذات).

٣- الاهتمام بتنمية القدرات العقلية العليا في تعليم القراءة ، فالمدرس مسئول تمامًا عن تنمية القدرة على التفكير الناقد والتفسير والاستنتاج ، والإبداع ، والابتكار ؛ ذلك لأن القراءة ـ كانت ـ وستظل ضرورية في تنمية حضارتنا .

٤- الاهتمام بمواجهة الحاجات الفردية ، ومواجهة الفروق الفردية ، ولذلك هناك حاجة ملحة وضرورية لبناء المواد ذات المستويات المختلفة التي تواجه الفرد ، وقدراته ، كما أن هناك ضرورة ملحة لتبني نماذج مختلفة لتعليم القراءة ، خاصة في المرحلة الأولى من تعليم القراءة .

٥- الاتجاه إلى إعداد معلم القراءة الذي يستطيع في وقت واحد أن يقدم القراءة للمتفوقين ، وأن يقدمها للمتوسطين ، وللعاديين .

٦- الحاجة إلى تجديد أدوات البحث ، وأدوات القياس ، والمعالجات الإحصائية ؛ حتى تتوافر لنا معلومات جديدة عن تعليم القراءة في مراحل التعليم المختلفة .

ونود أن نشير في النهاية إلى بعض الميادين التي كثرت فيها بحوث القراءة في القرن الماضي :

١- خصائص معلم القراءة الناجح .

٢- الأشكال المختلفة أو الجوانب المختلفة للقراءة .

٣- تجديد المهارات الأساسية للقراءة .

٤- تنمية الميل إلى القراءة .

٥- بعض الوسائل للمساعدة في تعليم القراءة .

٦- طرق تعليم القراءة .

٧- القراءة العلاجية .

٨- اختبارات القراءة .

٩- تحسين عملية القراءة .

١٠- أدوات تعليم القراءة .

١١- تشخيص الضعف في القراءة .

١٢- العوامل المؤثرة في تعلم القراءة .

١٣- مشكلات تعلم القراءة .

١٤- مساعدة القراء الضعاف .

١٥- إعداد المتخصصين في تعليم القراءة .

١٦- العوامل المؤثرة في تعليم القراءة .

١٧- مواجهة الفروق الفردية في تعلم القراءة .

١٨- القراءة في مراحل التعليم المختلفة .

١٩- القراءة للمواد العلمية .

٢٠- القراءة في المرحلة الثانوية .

٢١- تنمية القراءة لطلاب الجامعة .

إن كل ما ذكرنا عن اتجاهات البحوث العلمية في مجال القراءة ، وعن التوقعات التي تنبأ بها الخبراء في مجال تعليم القراءة تشير إشارة واضحة إلى دور القراءة في بناء الإنسان من أبعاده المختلفة ، فقد ذكرت كثير من البحوث والمقالات والخطب السياسية والاجتماعية أن القراءة لها علاقة بحرية الإنسان ، فالقراء - فقط - هم الأحرار ؛ لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة ، ولها علاقة بالتقدم والتحضر وقيادة الأمم ، من يقود الأمم الآن؟ هؤلاء الذين يقرءون ويكتبون ، وعلاقة بعمق الجانب الديني والإيماني ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ (فاطر:٢٨) ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩) ، ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١-٥) والقراءة لها علاقة واضحة يتبوأ الأفراد المراكز الاجتماعية المرموقة ، والمراكز السياسية والقيادية ، انظر حولك لترى ذلك صحيحًا ، ولها علاقة بالابتكار والاختراع ، وهل المخترع أو المبتكر إلا قارئ جيد ، وقارئ مثابر ، وقارئ مفكر .

* * *